PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(10): 427-443
ISSN: 1553-6939

Characteristics of the message in the Andalusian era -sample letters of Ibn al-Khatib

Aloui Djawhara[1]
[1]University of Ghardaia, Faculty of Arts and Languages (Algeria).
The E-mail Author: alouidja@gmail.com
Received: 03/2024 Published: 09/2024

Abstract:
The ancient Arabic prose has great cultural importance, because it includes history and pen creativity, and the letter is one of the most important types of writing in ancient Arab prose, and this made the art of the message be strongly present in the literature of Andalusia. Especially since it has achieved the aesthetic and communicative dimension in a picture that reflects the extent of Andalusians 'interest in this ancient art of writing. In an attempt to elucidate the peculiarities of the environment in which his chosen messages arose.
Keywords: Transmission, Ancient Arabic prose, Andalusian era, Son of a fiancé.

خصائص الرسالة في العصر الأندلسي ـرسائل ابن الخطيب عينة.

د. جوهرة علوي[1]
[1]جامعة غرداية، كلية الآداب واللغات (الجزائر).

ملخص:
يمثل النثر العربي القديم واجهة ثقافية وازنة، لاسيما وأنه استوعب الكينونة التاريخية والإبداعية للعرب القدامي، ويُعَدُّ الفن الترسلي أحد الأجناس النثرية الهامة في مضمار الكتابة الأدبية العربية القديمة، وإن مما يؤكد ذلك هو الحضور البارز للكتابة الرسالية في أدب الأندلس. لاسيما وأنها حققت البعد

الجمالي والتواصلي في صورة تعكس مدى اهتمام الأندلسيين بهذا الفن الكتابي العريق، وسنحاول الوقوف على ملامح الترسل في البيئة الأندلسية، متخذين من بعض نصوص لسان الدين بن الخطيب نماذج تطبيقية. في محاولة لاستجلاء خصوصيات البيئة التي انبثقت فيها رسائله المختارة.
الكلمات المفتاحية: الترسل، النثر العربي القديم، العصر الأندلسي، ابن الخطيب.

مقدمة

لقد كان للمدونة النثرية مكانتها البارزة في مضمار العمل الأدبي في العصور القديمة. على الرغم من أقدمية التأثير الشعري الذي فرض نفسه على الأدب العربي منذ أحقاب بعيدة، وتعد الكتابة الرسالية من مظاهر الحضور النثري في مدونة الثقافة الإبداعية العربية. لما للرسالة من أهمية تواصلية سامية، تقتبس منها دراستنا هذه أهميتها البحثية والعلمية، لاسيما وأننا نحاول الوقوف على النثر الترسيلي في بيئة وزمان تربطنا به وشيجة الانتماء، وواجب الاهتمام البحثي الذي تفرضه علينا المسؤولية الثقافية القاضية بضرورة العناية بتراث المغرب الإسلامي والأندلس الذي مايزال في حاجة إلى العناية والدراسة والابتعاث. لذلك توجهنا صوب منجز نثري موسوعي وهو كتاب نفح الطيب للمقري التلمساني الذي خصّص فصلا كاملا لرسائل أحد أعلام العصر الأندلسي، وهو لسان الدين بن الخطيب. الذي قدم مادة رسالية ثرية أشرقت بها خزانة الأدب القديم. وهي المادة التي اخترنا منها سبعة رسائل حاولنا من خلالها استخلاص الإطار العام لخصائص ومميزات الكتابة الرسالية عند لسان الدين. إذ انطلقنا في بحث ذلك من تساؤلات مفادها: ما مميزات فن الترسل في العصر الأندلسي؟ وهل انعكست بيئة الأندلس في هذا الفن الأدبي؟ وفيما تتجلى مميزات الكتابة الرسالية عند لسان الدين الخطيب؟ وهل يظهر أثر بيئة المؤلف في رسائله المدروسة؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات، باستثمار جملة من الآليات المنهجية، على غرار المنهج التاريخي فيما يتصل بتعريف المؤلف وعصره، كما سنوظف المنهج الوصفي لإبراز الخصائص الفنية والموضوعية للرسالة الأندلسية ورسائل لسان الدين. ناهيك عن منهج تحليل المحتوى الذي ساعدنا على استخلاص ميزات الأدب الرسالي للسان الدين.

أما تطبيق هذه المناهج فقد استدعى منا اعتماد خطة منهجية مدروسة، سنخصص محورها الأول لمحددات الموضوع، بما في ذلك تعريف الرسالة وفن الترسل، واختصار مسيرته التاريخية عبر العصور. ثم ننتقل في المحور الثاني إلى التفصيل في خصائص ومميزات الأدب الرسالي في العصر

الأندلسي. أما المحور الثالث فسنحاولنا فيه الوقوف على خصائص رسائل لسان الدين الذي نفتتحه بتعريفه هذا المحور. ولاشك أننا سنحاول تذييل الخاتمة بالنتائج التي توصلت إليها الدراسة.

أولا: محددات موضوع الدراسة

1. تعريف الرسالة: الرسالة قطعة من النثر الفني، تطول أو تقصر تبعا لمشئية الكاتب و غرضه و أسلوبه ،و قد يتخللها الشعر إذا رأى لذلك سببا ،وقد يكون هذا الشعر من نظمه أو مما يُسْتَشْهَدُ من شعر غيره ،وتكون كتابتها بعبارة بيلغة ، وأسلوب حسن رشيق،و ألفاظ منتقاة ،و معان طريفة. (عبد العزيز عتيق.2008م.ص:448)

ولا يخفى على أي متتبع لتاريخ الأدب العربي، ذلك الدور البارز الذي أدته الرسالة، مع مجئ الإسلام، على الصعيد السياسي والديني الأدبي و الاجتماعي؛ فكانت الرسالة أداة فعالة في الاتصال بالعالم الخارجي، وهذا ما لم يكن الشعر و الخطابة قادرين على تحقيقه، و من هذا التاريخ نافس الكاتب المترسل الشاعر و الخطيب.

تجدر الإشارة إلى أن تعدد أنواع الرسائل، مرتبط بتعدد المجالات المرتبطة بها، فتسمى الرسائل السياسية بالرسائل الرسمية، بينما تسمى الرسائل الاجتماعية بالرسائل الإخوانية، وهذه الأخيرة هي النوع الذي يتعلق بمجال الدراسة.

2. تعريف فن الترسل وتطوراته:

يُعَدُّ فن الترسل من أبرز وأهم فنون الأدب العربي القديم ،و قد كانت له محطات مضيئة و صفحات مشرقة في الحياة الأدبية و الفكرية و الاجتماعية ، حيث عرف تطورا وازدهارا كبيرين خلال العصرين الأموي والعباسي - في القرنين الثالث و الرابع الهجريين- إذ ذاع صيته، و انتشرت هيبته و صلت إلينا منه نماذج كثيرة .

وفي مقاربة مفهومية نجد بعض الدارسين يُعَرّفه : "فن نثري جميل، يُظْهِر مقدرة الكاتب و موهبته الكتابية و روعة أساليبه المنمقة." (مجموعة من العلماء و الباحثين،دت،ص 202).

وتقتضي الضرورة المنهجية أن نقدم مقاربة تاريخية سريعة لتطور الفن الرسالي، ففي العصر الجاهلي تميزت الرسالة من الناحية الشكلية بالإيجاز و البساطة في التعبير،بينما تميزت من الناحية المضمونية بتسجيل التوصيات و الحكم و الامثال ومن النماذج الرسالية في ذلك العصر ،"رسالة المنذر الأكبر"

إلى " أنو شروان أو رسالة"النعمان بن المنذر "إلى " كسرى " في الردّعلى اتهاماته للعرب ، و تفنيد أباطيله فيهم.والملاحظ على الرسائل الجاهلية أنها كانت قريبة إلى حد ما من الخطبة ،باعتبار الخطبة أكثر الفنون النثرية شيوعا في تلك المرحلة . (أحمد الإسكندري و آخرون.2005.ص157) أما الرسائل في صدر الإسلام فقد اتسمت في العصر النبوي بتغلب الهدف الدعوي على الهدف الفني ، لذلك جاءت موجزة واضحة ،بلغة سهلة مألوفة، بعيدة عن التكلف و التنميق اللفظي ،إلى جانب ذلك فقد خلت الرسائل من عبارات التفخيم و التعظيم إلا ما ندر. كما أن الرسائل في عهد الخلفاء الراشدين ،تميزت بمسحة دينية تجلت بكتابة البسملة و الصلاة و السلام على النبي الكريم ، و التوحيد ، و التحميد والوعظ و الارشاد والدعاء حتى صارت نماذج يحتذى بها و سنّة تقتفى. (مي يوسف خليف،2002،ص135)

في العصر الأموي عرف فن الترسل بداية استقلالية شخصية كاتب الرسالة بعدما كانت الرسائل في العصر النبوي يغلب عليها طابع الاملاء من الخليفة .ومن أبرز خصائص فن الترسل في هذا العصر هو أن معظمه كان فنّا رسميا تعلق بأمور الدولة، و قد ظهرت فيه الصنعة اللفظية و سيطرة الأساليب الانشائية و التصوير ، و الاسترسال في في تفريع المعاني و نجد من بين المهتمين بهذا الفن و أشهرهم "عبد الحميد الكاتب". (أما سعد داعوق،دت،ص 29) و(مي يوسف خليف ،2002،ص 160)

وفيما يتعلق بالعصر العباسي فقد بلغ فن الترسل فيه أرقى ما وصل إليه الانشاء العربي ، حيث شاع البديع و تلونت الرسائل بالصنعة اللفظية كما سيطر السجع بشكل جليّ وواضح ، وصار للرسائل نمط كتابي خاص من حيث البدء و العرض و الختام ، كما عرف الترسل تعذذ الاغراض فنجد رسائل في التهنئة و التعزية ، و المديح و الرثاء ، ممّا يعني أن الرسائل الإخوانية قد عرفت اهتماما بالغا في تلك المرحلة. (أمل سعد داعوق ،دت ، ص30)

3. الترسل في العصر الأندلسي

لا يخفى على أي مطّلع في تاريخ الأدب العربي ذلك التواصل القائم بين المشرق العربي ، و المغرب الاسلامي ليظهر هذا في تأثر المغاربة الأندلوسيين بالمنجز المشرقي ، لكن لا يعنى تأثر الأندلوسيين بالمشارقة أنهم نسجوا حرفيا على منوالهم ،و أنما سجلوا اضافات جديدة في فن الترسل عكست في لغتهم الشعرية و موسيقاها ، و قد عبر عن ذلك عبد العزيز عتيق :"... وقد بما لهم من حرية الكلمة أن يجولوا برسائلهم في كل مجال ، و أ ن يعالجوا من الموضوعات كل قريب و بعيد ، و أن يطيلوا ما شاؤوا ، و أن ينهج كل كاتب

منهم في صناعته النهج الذي يرتضيه و يلبّي ميوله ".(عبد العزيز عتيق ،2008،ص 249).

ومن الكتاب الذين اشتهروا بفن الرسالة في تلك المرحلة "خالد بن يزيد" الذي كان كاتبا " ليوسف الفهري "أحد ولاة الأندلس و منهم " أمية بن يزيد" الذي دخل الأندلس مع جنود" بلج بن بشر " و اتصل" بخالد بن يزيد "الذي جعله كاتبا له بالاضافة الى "ابن زيدون " و " ابن شهيد "و "ابن حزم "وغيرهم ممن كانت رسائلهم مطبوعة ثم تحولت الرسائل إلى التكلف و السجع و التزيين و تقلب الجمل على المعنى الواحد ، و الاكثار من الأدعية و الأمثال و الشواهد الشعرية و غدا النثر مرصوفا مسجوعا كما في رسائا " ابن برد الأصغر " و رسائل " لسان الدين ابن الخطيب ". (يوسف عيد،2006،ص 556)

ثانيا: أنواع الرسائل في العصر الأندلسي

تعددت الرسائل الأندلسية بتعدّد الموضوعات الاجتماعية و العقلية و النفسية و الفلسفية و رسائل الرحلات ؛كرسائل ابن باجة الفلسفية ، ورسائل ابن برد الأصغر ذات البراعة الأسلوبية ، و رسائل ابن حسداي في الزّهريات ، و رسائل أبي عبد الله بن مسلم في وصف الرحلات إلى المدن و البلاطات وقد جمعت رسائله في "رسالة بعنوان "طئ المراحل ". (يوسف عيد،2006،ص 557)

وبما أن موضوعنا يتعلق بنوع محدد من رسائل الأندلس فسنوفيه حقه من الشرح والتمثيل، دون أن نلتزم بذلك مع بقية الأنواع الأخرى التي سنشير إلى تعريفاتها باقتضاب تفرضه طبيعة الموضوع، وهي محددة على النحو الآتي:

نشير سريعا إلى أشهر الأنواع الرسالية استنادا إلى طرفيها

1. الرسالة الديوانية (توجه من رئيس إلى مرؤوس):

يرتبط هذا النوع من الرسائل بالسياسة، وأمور الحكم، مما يعني أنها رسائل رسمية، وقد سميت بهذا الاسم؛ لأنها تصدر عن الدواوين أو ترد إليها، خاصة بشؤون الدولة.

2. رسالة المزاوجة :

هذه النوع من الرسائل، عكس الرسائل الديوانية التي ترسل من الرئيس إلى المرؤوس. فهي توجه من مرؤوس إلى رئيس. كما أن هذا النوع مخالف لغيره من الرسائل، في الشكل والمضمون.

هناك رسائل موجهة إلى جمهور القراء، كالرسائل الأدبية، والوعظية والتعليمية، والزرزوريات، ورسائل وصف الرحلات ... إلخ

3.الرسائل الأدبية:
تطلق هذه التسمية على الرسائل التي يغلب عليها الطابع الأدبي، ويطغى فيها عنصر البلاغة، وتتطلب مقدرة لغوية معتبرة، ومهارة كتابية كبيرة
4. الرسائل الوعظية أو الدينية :
وأما عن الرسائل الوعظية فهي الرسائل التى تحمل على مواضيع دينية تحمل طابع الصلح و التوعية يكتبها الأتقياء إلى بعض الحلفاء و السلاطين و الأمراء.
5. الرسائل التعليمية:
و هذا النوع من الرسائل ،يتطرق فيه الكتاب إلى الحديث عن موضوعات تاريخية أو أدبية أو علمية و هي الأقرب لميدان التأليف.
6. رسائل في وصف الرحلات:
هي رسائل يغلب عليها الجانب السردي و الوصفي و يمزج بين الجغرافية و التاريخ أو الإجتماع و أسبابها دينية أو تجارية،أو علمية أو دبلوماسية ،و جانبها الأدبي يتركز في الحنين إلى الأوطان أو الشعور بالغربة ،و كتابها سموا بالبلدانيين ، و من أهمهم أبو حامد الغرناطي. (عمر ابراهيم توفيق ،دت،ص 180).
7. الزرزوريات:
"هي رسائل في التندر و الفكاهة و لإظها القدرة الفنية،ابتدعه أبو الحسن بن السراج الذي خاطب أهل عصره برسالة يشفع لرجل يعرف بالزيرزر ، وتصوره زرزور حقيقي له ريش و منقار و فرخ و عش ... من خلال الإستعارات "،فهي رسائل يستعمل فيها الأسلوب الساخر و المتهكم و مزجه مع أسلوب الكاتب و موضوع الرسائل ،حيث يوظف في ذلك كثير من الإيماءات و الإستعارات". (عمر ابراهيم توفيق ،دت،ص 179).
8. الرسائل الإخوانية(الأهلية) :
هي تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان و الأصدقاء و الخلصاء،ومنها أيضا الرسائل التي يرسلها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته ،أو يلتمس منه أمرا من الأمور، و هذا النوع ميدان فسيح للإبداع يتبارى فيه الكتاب و الأدباء ،ويتاح لأقلامهم و قرائحهم أن تنطلق على سجيتها ،و أن يُعَبِّر أصحابها عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاه،و أساليب قوية موشاة. (عبد العزيز عتيق ،208م،ص454).
ويسمى هذا النوع أيضا بالرسائل الأهلية، إذ يتبادلها الإخوان والخلان والأصدقاء، وتتناول موضوعات إنسانية،كالتهنئة و التعزية ،و البشارة ، والعتاب ، واعتذار، واستعطاف، ورثاء، وغير ذلك من أمور الحياة. (شوقي ضيف ،2004م،ص491).

وتسمى هذه الرسائل بـ: الرسائل الاجتماعية، والمكاتبات، والمراجعات، والرسائل الشخصية الخاصة، لكن الرسائل الإخوانية هي التسمية الغالبة. (سلطان عبد الرؤوف الحريري،دت،ص36).

وقد ذهب بعضهم إلى تسميتها بالرسائل الشخصية أو الذاتية في مقابل الديوانية أو الرسمية، لسببين أحدهما أن طرفي الاتصال فيها (المرسل والمرسل إليه)، أوسع دائرة من دائرة الإخوان، والآخر أن السمة الفارقة فيها تقوم على البوح الذاتي أو الشخصي بين المترسلين، عندما يتبادلان فيها الأخبار عن ذواتهم وشؤون حياتهم الخاصة، أو التعبير عن آرائهم ومواقفهم الشخصية، أو التصريح بأفكارهم وتصوراتهم الذاتية، تجاه بعض القضايا من حولهم، أو الإعراب عن مشاعرهم وعواطفهم، خاصة في المناسبات الاجتماعية، أو اللحظات التاريخية. (سلطان عبد الرؤوف الحريري،دت،ص156).

يقول القلقشندي عن هذا النوع من الترسل :"الإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان ، والمراد المكاتبة الدائمة بين الأصدقاء". (القلقشندي،دت،ص 126).

وقد عدّد القلقشندي أنواع الرسائل الإخوانية حتى أوصلها إلى سبعة عشر نوعا هي :"التهاني و التعازي ، و التهادي و الشفاعات ،و الشوق ، و الاستزارة، و اختطاب المودّة، و خطبة النساء و الاستعطاف ،و الإعتذار ، و الشكوى، واستماحة الحوائج ، و الشكرو العتاب ، والسؤال عن حال المريض ، والأخبار ، والمداعبة". (القلقشندي ،دت،ص5).

ويكادهذا النوع من الرسائل في العصر الجاهلي ينعدم و السبب راجع في ذلك لانشغال الرواة بالشعر المروي عنه شئ كثير و على ثقافة المشافهة ذلك باعتبارهم الشعر ديوان يسجلون عليه تفاصيل حياتهم و ما يعبرون به من مشاعر و عواطف و ربما نعتبر هذا التقصير لقلة الكتاب في ذلك العصر.

و الرسائل الإخوانية ينشئها الكتاب فقد "... كانوا يتراسلون فيما بينهم متخذين من الرسائل و سيلة للتعبير عن مشاعرهم و انفعالاتهم ،و ما تتعرض له أحوالهم النفسية من نوازع متضاربة ، فصورا فيها ما يعتريهممن شوق و فرح ،و ما يتعرضون له من أحزان و أقراح ، وما بداخلهم من رضا و غضب ، و اتسعت موضوعات الرسائل الإخوانية ، فأصبحت تعكس عواطف الكتاب و الصداقة والشوق و البشارة و الفراق و الاستعطاف و الاعتذار و غير ذلك.وتنافس الكتّاب في إظهار براعتهم في هذا اللون من الرسائل ، فوفروا لها عناصر المتعة الفنية من تصوير و صياغة و موسيقى،فجمعت بين المتعة الوجدانية ، والمتعة الفنية ، واحتدت بذلك تأخيرا قويّا في نفوس الناس ،ممّا

جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها و يتخدونخا وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثير من الناس يفضلون المنثور على المنظوم" (فوزي سعيد عيسى،1991م،ص 35).

ارتبطت موضوعات الترسل الإخواني إلى حد بعيد بالجانبين الإنساني و النفسي ،و هو ما يعكس عمق الروابط الاجتماعية بين المترسلين ، و يبعث في القارئ ترسيخ مبادئ الأخوة و الترابط الانساني ،فمن أبرز الموضوعات التى اعتنى بها الكتاب نجد موضوع الصداقة ، الذي يرمي إلى التعبير عما تختلجه النفس الإنسانية من مشاعر و عواطف جمّة ، و لعل من أبرز الجوانب التي تطرق لها فن المراسلات الإخوانية:

9. الاجتماعية:

برزت الرسالة الإخوانية في الموضوعات الإجتماعية المتصلة بالعلاقات التى تنعقد بين الكتاب فاجتذب الكثير منهم ليعبروا في رسائلهم عن هذه العاطفة الإنسانية النبيلة و السمحة"كالرغبة في التلاقي للمسامرة أو المنادمة أو الإستئناس، و عبرت ذلك عن بعض العادات الإجتماعية التي شاعت بين الكتاب آنذاك كتبادل الهدايا من كتب و زهور و خيول و سيوف ،وغيرها.واتخذ الكتاب الرسالة الإخوانية أداة لتوجيه الشكر إلى أو معروف أحاطوهم به". (فوزي سعد عيسى،1991م،35-36).

و الى جانب ما سلف ذكره من موضوعات، فقد امتدت الرسالة الإخوانية لتشمل فنون أخرى و تتداخل مع أجناس أدبية شتّى كالشعر و الرواية مثلا في ما طرقت من موضوعات و أغراض فـ :"...تناولت موضوعات (الاعتذار) باعتباره يمثل صورة العلاقة المتبادلة بين الكتاب، فكان الكاتب يعتذر عن تلبية دعوة أو المشاركة في إحدى المناسبات ذاكرا به الأسباب التي حالت دون تلبية دعوته و طوع الكتاب الرسالة الإخوانية لموضوعات أخرى كالوصايا و التشفع فكان الكاتب يوجّه رسالة إلى بعض إخوانه يسألهم فيه إنجاز أمر يتعلق بأحد معارفه أو أصحابه، و كانت هذه الرسائل تشبه بطاقات توصية و فيها يعتمد الكاتب للايجاز و عرض مسألته في عبارات قصيرة .

وكانت التهاني من الموضوعات التي شغلت مساحة من الرسائل الإخوانية لتعكس بذلك عادة اجتماعية وثيقة الصّلة بالمجتمعات المتحضّرة ، فكثرة التهاني بالولاية و غيرها من المناسبات الإجتماعيةالسّارة كالزواج،و الإنجاب و العودة من السفرو الشفاء من المرض و عكست هذه الرسائل عمق العواطف المتبادلة بين الكتاب،كما ظهرت براعة بعض الكتاب في لتعبير عن معانيه ، وقد عمد الكتاب في تهانيهم للإيجاز لتصبح رسائلهم أقرب إلى بطاقة

التهنئة المتداولة في وقتنا الحاضر".(فوزي سعد عيسى،1991م، ص ص:38 إلى 46).

حاول الكثير من النقاد الإهتداء إلى وضع قواعد و شروط إلزامية من شأنها ضبط ما يكتبه الكتاب أثناء صياغة رسائلهم ، إلا أنهم اعتقدوا خلاف ذلك ،فمن شأن التقييد ، هو الدعوة إلى التكلف و التصنع و ذلك ما يتنافى تماما مع البوح بالمشاعر و الخواطر التى تدعو إلى التحررو إطلاق العنان لكتاب الرسائل الإخوانية في التعبير عن أفكا رهم ومشاعرهم، و هو ما أشار إليه أحمد بدوي "و قد حاول النقاد أن يضعوا معالم يهتدي بها الكتاب في كل ضرب من ضروب الرسائل الإخوانية،و لكنهم في كثير من الأحيان يعترفون بالعجز عن وضع المعالم بدقّة" (أحمد بدوي،1964م ،ص 32).

و لعل هذه الحرية الكتابية ما جعل المراسلات الإخوانية يحظى بالأدبية و الجمالية الفنية على النقيض منه في المراسلات الديوانية التى ترقى لطابع الرسمية .

ثالثا: خصائص الرسائل الأندلسية

لقد تميزت الرسائل الأندلسية بجملة من الخصائص نبينها على النحو الآتي :

- **التقديم و الختام** :امتازت بتقديمها لصيغة الحمدلة و الصلاة و السلام على النبي صلي الله عليه و سلم ، و أما ختامها فكان يآية يحسن الاختتام بها أ و بالحسبلة أو السلام .
- **النمط :** اختصت غالبا بمخاطبتها للمرسل إليه بعد الاشارة إلى كتابه ، وقد يأتي اللقب مشفوعا بالدعاءبصيغة الغائب .
- **الاستشهاد:** بالغوا في مراسلاتهم من الشواهد الشعرية ، لما أضفته من طابع فني أكسب الكاتب قوة في التعبير على إبداء ما في خاطره .
- **التضمين:**لم تخلو المراسلات الأندلسية من كثرة الأمثال الأدبية ، أو العبارات التاريخية و العلمية و التى تحتاج في غالب الأمر إلى شرح لغرابة ألفاظها و عمق معناها.
- **التفرّع:** تفرّعت الرسائل بحسبب تعدد موضوعاتها و المعنى المراد من المراسلات إلى : رسائل للتهنئة و للتعزية و المديح و الرثاء ، و قسم خاص بالإخوانيات و السلطانيات و غير ذلك .
- **البديع :** فقد أطنب التمرسلون الأندلسيون من السجع على سبيل التأنق اللفظي و المعنوي ، إضافة للجناس و المحسنات البديعة الأخرى من فبيل الترصيع للأواني أو الوشي للثياب .

ـ **الخيال الشعري:** امتزجت الرسائل الأندلسية بعطر الشعر حتى أصبح سجعهم كالشعر المنثورلكنه مقفى فلا يعوزه إلا الوزن حتى يصير شعرا غنائيا يتغنى به في المناسبات و الأفراح. (عبد الحكيم كبوط،2007_2008م،29ص).

من رسائل القرن السابع الهجري في العصر الأندلسي ، ومن رسالة لإسماعيل بن محمد الشقندي (629 ه -1232م) و تبدأ قصة رسالته في مجلس صاحب مدينة سبتة المغربية الأمير أبي يحي ين أبي زكريا ، حيث جرى نزاع بين الشقندي الأندلسي ، وأبي يحي بن معلم الطنجي المغربي .و " قد روى هذا النراع ابن سعيد نقلا عن والده الذي قال:" كنت يوما في مجلس صاحب سبتة أبي يحى بن أبي زكريا ، فجرى بين إسماعيل الشقندي و أبي يحى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين ، فقال الشقندي : لولا الأندلس لم يذكر برّ العدوة ، ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما لم تعلم : فقال الأمير أبو يحى : أتريد أن تقول :كون أهل برنا عربا ، وأهل بركم بربا ؟ فقال : حاشا الله؟ فقال الأمير : و الله ما أردت غير هذا ، فظهر في وجهه انه اراد ذلك ن فقال ابن المعلم : اتقول هذا و الملك و الفضل إلا برّالعدوة؟ فقال الأمير: الرأي عندي ان يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل برّه " لبان أسباب فضل كل برّ عن الآخر.

ولا شكّ فهذه الأسباب دفعت أبا الوليد إلى كتابة رسالته التى نقلها المقرّي في أكثر من ثلاثين صفحة منها هذه الشذرات حيث يقول في في رسالته:" الحمد لله الذّي جعل لمن يفخر بالأندلس أن يتكلم ملئ ما فيه ، و يطلب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه و لا من يثنيه ، إذ لا يقال للنهار : يا مظلم ، ولا لوجه النعيم :يا قبيح".

فالملاحظ ،أن المرسل استتقتح رسالته بصيغة الحمدلة ثم استهل خطابه من خلال إشارته إلى الغرض مباشرة وهو تعظيمه للأندلس .

رابعا: الترسل عند لسان الدين الخطيب

1. تعريف لسان الدين الخطيب (لسان الدين بن الخطيب،2003م ،374) (ابن حجر،1967م، ص: 129) (التنبكتي، أبو العباس أحمد بن بابا، دت،ص 264) هو: لسان الدين أبو عبد الله، محمد بن سعيد، بن عبد الله، بن سعيد، بن علي، بن أحمد السلماني القرطبي الأصل ،الغرناطي ، اللوشي. (مجموعة من العلماء و الباحثين، دت ،ص 202). وفيما تعلق بلقب الخطيب؛ فقد أُطْلِقَ على جَدِّه الأعلى سعيد ، لكونه خطيبا بلوشة ،فعرفت الأسرة باسم آل خطيب

ولد لسان الدين بن الخطيب، في الخامس و العشرين من شهر رجب، سنة (713ه_1313م) في مدينة لوشة.

و نشأ لسان الدين بن الخطيب في في غرناطة في بيت علم وجاه، إذ كان والده يشتغل يومئذ مشرفا على مخازن الطعام، في قصر السلطان أبي الوليد اسماعيل، تميَّز لسان الدين بن الخطيب بمقدرة أدبية و لغوية و شعرية وفقهية بارزة، حيث تلقى العلوم على يد طائفة من الشيوخ ،و أخذ عنهم ما بين قراءة و سماع و إجازة ، ناهيك عن تمكنه في علوم الطب و الفلسفة .

لقد بلغت مؤلفات لسان الدين بن الخطيب بحدود الستين مؤلفا ،تنوعت بين المؤلفات التاريخية و الجغرافية التراجم و الأدب و الشعر و الفلسفة و الطب نذكر منها:

- الإحاطة في أخبار غرناطة،الحلل المرموقة في اللمع المنظومة ،جيش التواشيح،خطرة الطيف و رحلة الشتاء و الصيف،الحلل الموشية في ذكر الأخبار الأندلسية ، نفاضة الجراب في علالة الإغتراب.

- روضة التعريف بالحب الشريف ،معيار الإختبار في أحوال المعاهد و الديار ، الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء الماءة الثامنةكنّاسة الدكان ،بعد انتقال السكان و هو كتاب أدب و ترسل.

- الصيب و الجهام ، والماضي و الكهام :عنوان ديوان، جمع فيه بن الخطيب معظم شعره. (لحلو اسمهان ،2018م، ص 101) (غازي الشمري 2009م، ص 190-191).

بعد وفاة أبو الحجاج، أبقاه السلطان الجديد الغني بالله، محمد بن أبي الحجاج يوسف بن اسماعيل، بن فرج النصري 755-793ه_1354-1390م في مركزه، و زاد من تكريمه.

قتل لسان الدين بن الخطيب، بمدينة فاس المغربية سنة 776_1374م، على أيدي حاسديه. (المقري،،1942م. 193/1).

2. مميزات رسائل لسان الدين الخطيب

أ- طول حجم الرسائل :

يُلَاحظ على المؤلف إطالته في حجم الرسائل، مما يعكس طول النّفَس الكتابي لديه. حيث يفوق عدد أسطر معظم الرسائل ثلاثين سطرا. ولعل البيئة الثقافية التي فرضت هذه الخاصية. إذ عرف الفضاء الأندلسي إغراقا في الوصف و الاسترسال فيه و تطويل الاستهلال و الاختتام. وسنحدد أحجام هذه الرسائل على النحو الآتي

بداية الرسالة	نهاية الرسالة	المرسل إليه	عدد الصفحات	عدد الأسطر
يا سيدي الذي رفعت راية	وفضل يقينه ،و السلام.	عبد الله ابن اليتيم	ثلاث صفحات من:227 إلى	41 سطرا

ثنائه			229	
بنفسي و ما نفسي علي بهينة	و رحمة الله و بركاته " انتهى.	أبو زيد بن خلدون	ستة صفحات من: 389 إلى395	160 سطرا
إلى الامير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين .	و السلام الكريم يخصكم و رحمة الله تعالى و بركاته	الأمير يلبغا الحاصكي	ثلاث صفحات من: 409 إلى 411	44 سطرا
سيدي و عمادي ، كشف قناع النصيحة من وظائف صديق	و الفخر الذي لا ينفذ، و السلام "انتهى	ابن مرزوق المذكور	ثلاث صفحات ونصف. من:424إلى 428	69 سطرا

نلاحظ أن رسالته إلى أبي زيد بن خلدون أطول نماذجه الرسالية حجما، إذ فاقت بقية الرسائل بما يزيد عن مائة سطرا. بالنسبة لرسالته إلى ابن اليتيم، ورسالته إلى الأمير يلبغا الحاصكي. وبمايزيد عن سبعين سطرا بالنسبة لرسالته إلى ابن مرزوق المذكور.

وتجدر الإشارة إلى عدم اقتصار رسائل ابن الخطيب على الحجم الطويل، وإنما نجد بعض النماذج الرسالية القصيرة التي لم يتجاوز حجمها عشرين سطرا، ومن ذلك رسالته إلى شيخه أبي عبد الله بن مرزوق الواردة في صفحة واحدة. وعدد أسطرها 18 سطرا.والمبدوءة بـ: " سيدي بل مالكي بل شافعي." وتنتهي بقوله:"ويصل لنا تحت إيالته العام بالعام و الشهر بالشهر ،آمين آمين " انتهى. (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:339)

وكذا رسالته إلى محمد ابن نوار المؤرخة في حوالي نصف صفحة،وعدد أسطرها سبعة أسطر. المبدوءة بـبيت شعري مؤداه: إن

كنت في العرس ذا قصور فلا حضور و لا دخالة .

وتنتهي بقوله:"فإنا أهنئكم بتسني أمانيكم، و السلام." (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:343)

ب- الإكثار من البديع :

إن الإكثار من البديع هو خاصية من الخصائص التي تعكس لنا سمة بارزة في عصر المؤلف، حيث احتفى القرنين الرابع والخامس هجريين بالبديع أيما احتفاء. بما يؤكد استجابة المؤلف للنبض الثقافي السائد في زمنه ، والذي شاع فيه البديع انسجاما و الفترة المزهرة التى عرفها العصر الأندلسي ، كما تجدر بنا الإشارة أننا ستناول البديه بمفهومه في عصر ابن الخطيب،حيث كان يجمع مباحث البلاغة مجتمعة ونقصد بذلك البيان والبديع كليهما. وهذا ما يقودنا إلى تقصي الصور البيانية والمحسنات البديعية في الآن نفسه.

الصور البيانية (المجاز)

الاستعارة :

لقد وظف ابن الخطيب الاستعارة بنوعيها المكنية و التصريحية ، ومن ذلك ما جاء في رسالته إلى عبد الله بن أبي مرزوق:"علقت بحبل من حبال محمد آمنت به من طارق الحدثان." (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:339) حيث شبه التقوى بالحبل ، فحذف المشبه به و أبقى على المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية،وذلك مما يعكس تشبع المؤلف بالثقافة العربية الإسلامية.

كما نجد الاستعارة في في رسالة لابن الخطيب مهنئا فيها ابن نوار ، و قد أعرس ببنت مزوار الدار السلطانية يقول له: "هنأكم الله دعاءا و خبرا ، و ألبسكم من السرور حبرا." (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:208) حيث شبه السرور باللباس ، فحذف المشبه به الثوب الذي يلبس و ترك قرينة تدل عليه "ألبسكم" على سبيل الاستعارة المكنية ، حيث انه أسند صفة معنوية حسية إلى شئ مادي و هو اللباس ذلك ما زاد المعنى جمالية فائقة ،فالمقام هنا مقام تهنيئة العروسين و ذلك واضح من بداية الرسالة كما يتجلى الغرض البلاغي من هذه الاستعارة في الدعاء و منه قوله تعالى : فهم في روضة يحبرون " الروم 15 أي يسرون و ينعمون و يكرمون.

الكناية:

لقد وظف ابن الخطيب يوظف الكناية في عدة مواضع من رسائله، ومن ذلك قوله : (قلادة الدين – سيف الدعوة- ركن الدولة – قوام الملة- مؤمل الأمة – تاج الخواص) (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:282)
جميعها كناية عن موصوف وهي المكانة المرموقة التي حظي الأمير يلبغا في عصره و مكانه.
رهبان الليل : كناية عن صفة المبالغة في قيام الليل .
حمراء غرناطة : كناية عن موصوف وهو قصر الحمراء.

أحلاس الليل : كناية عن صفة الجهاد في سبيل الله. (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:282)

الملاحظ أن ابن الخطيب أكثر من الكنايات في مقابل عدد قليل من الاستعارات ،وقد وظفها ابن الخطيب بطريقة مميزة توحي عن حسه البلاغي و التأثيري ، حيث انه يريد ايصال المعنى للمخاطب بطريقة غير مباشرة تعكسها لغته الإيحائية.

التشبيه :

نجد التشبيه في رسالته لابن نوار التي يقول فيها :" أنتم بركان جمال " هذه الصورة تتضمن تشبيها بليغا إضافة الى الكناية.

المحسنات البديعية :

السجع:

توجد أسجاع مختلفة الفواصل في رسائل ابن الخطيب المدروسة لكنه يكثر من إيراد نماذج السجع الثنائي الفاصلة مما يعكس غزارة الذخيرة اللغوية و براعته في تطويع اللغة .

زين الأمراء – علم الكبراء / عين الأعيان – حسنة الزمان (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:282)

الجناس: نجد الجناس الناقص فيما يلي: الأمراء- الكبراء/ التوفيق – الوثيق / شمائله – خمائله/ تقبل الله جهادهم،و قدس نفوسهم،و امن معادهم . (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:283)

الطباق:

نجد طباق الإيجاب بين الكلمات الآتية:قاص- دان /الأرواح- الجسوم ./ الساهرة –النائمة(المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:464)

كما نجد طباق السلب بين: تدري و لا تدري(المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:464)

الاقتباس:

نجد الاقتباس في رسالته إلى مرزوق المذكور: "ولا يعبد الله تعالى و لو على حرف.". (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:464) هو اقتباس قرآني ظاهر من قوله عز و جل :"ومن الناس من يعبد الله على حرف " سورة الحج – الآية 11.

ج-تنوع موضوعاته الترسلية:

لقد تنوعت الموضوعات تبعا للمناسبة التي كانت تفرضها ضرورة الكتابة الرسالية عند لسان الدين و لعل ذلك يعكس الوضع السياسي و الاجتماعي لبلاد الأندلس من جانب و المكانة المرموقة التى حظي بها المؤلف

في عصره من جانب آخر،ذلك ما نلمسه من خلال تعدد الجهات المرسل إليها حيث نجده يراسل الكثير من وجهاء الدولة و فضلائها ، ناهيك عن تراجمه المتنوعة و وصفه للبلاد الأندلسية و مكناسة على سبيل المثال.

ومن مواضيعه الرسالية المتعددة نجد التعزية في رسالته إلى عامر بن محمد الهنتاتي، كما نجد التهنئة في رسالته إلى محمد بن نوار، إضافة إلى المدح في رسالته إلى شيخه أبي عبد الله بن مرزوق. وفي رسالته إلى عبد الله بن اليتيم، ورسالته إلى الأمير يلبغا الحاصكي. ناهيك عن الشوق في رسالته إلى ابن خلدون.

د- ميوله إلى اللغة الشعرية:

اتسمت الرسائل باللغة الشعرية وهذا ما يعكس التأثير العميق للمدونة الشعرية-النص النثري القديم- لاسيما و أن فن الرسائل كان في مراحله الأولى التي لم يكن قد احتفى به احتفاءا كبيرا و كأنما توسل باللغة الشعرية من أجل الحصول عل الاهتمام و لفت انتباه القراء و النقاد.

ه-المزج بين النثر و الشعر:

لاشك أن موسوعية المؤلف التى كانت تقتضيها المرحلة الحضارية هي التي فرضت هذه المزاوجة بين النثر و الشعر في الفن الترسلي، مما يعني أن هذه الخاصية ليست ميزة تميز بها لسان الدين و إنما هي ظاهرة كتابية فرضت نفسها عليه و على غيره من المؤلفين الموسوعيين مثال الحصري القيرواني في المغرب صاحب كتاب" زهر الاداب " و ابن رشيق صاحب كتاب "العمدة" و قبلهما الجاحظ في الضفة المشرقية.

وفيما يلي نموذج امتزج فيه النثر بالشعر:" ... وفضلت أولاي والمنة لله تعالى أخراي، وأصبحت وقول الحسن هجراي

علقتُ بحبل من حبال محمد ... آمنتُ به من طارق الحدثان." (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:339)

وقوله في نموذج آخر:

"إن كنتُ في العرس ذا قصور ... فلا حضور ولا دخاله

ينوبُ نظمي مناب تيس ... والنثر عن قفة النخاله

هنأكم الله سبحانه دعاءً وخبرا، وألبسكم من السرور حبرا ..." (المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.ص:342464)

خاتمة:

نأتي في ختام هذه الدراسة إلى التذكير بخطتها التي انتظمت في أربع محاور؛ حيث خصصنا محورها الأول لمحددات الموضوع، بما في ذلك تعريف الرسالة وفن الترسل، واختصار مسيرته التاريخية عبر العصور، ثم

انتقلنا في المحور الثاني إلى التفصيل في خصائص ومميزات الأدب الرسالي في العصر الأندلسي. أما المحور الثالث فحاولنا فيه الوقوف على خصائص رسائل لسان الدين الذي افتتحنا بتعريفه هذا المحور. وفيمايلي أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

- لقد استجابت رسائل ابن الخطيب لنبض العصر الثقافي كما عكست اهتمام بيئته بالفن الرسالي
- تُعَدُّ رسائل ابن الخطيب وثيقة تاريخية عكست جوانب مهمة في علاقة الحاكم بالمحكوم في عصر المؤلف كما نقلت لنا صورة علاقة المثقف بالسلطة آنذاك
- نخلص ختاما للقول أن رسائل ابن الخطيب ماتزال بحاجة إلى قراءة فاحصة تعبر مختلف الأبعاد الفنية والتاريخية والفكرية .

قائمة المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

الكتب:

أحمد الاسكندري وآخرون ،2005م. المفصل في تاريخ الأدب العربي ، مكتبة الآداب، القاهرة.

أمل سعد داعوق ،1982م. فن المراسلة عند مي زيادة، دار الآفاق، ط1، بيروت/لبنان.

ابن حجر، 1967م.أنباء الغمر بأبناء العمر، تح: محمد عبد المعين، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.

التنبكتي، أبو العباس أحمد بن بابا، دت.نيل الابتهاج بتطيرز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان.

شوقي ضيف،2002م. تاريخ الأدب العربي في العصر الاسلامي ،دار المعارف القاهرة ، مصر ط 20.

شوقي ضيف،2004م. تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة/ مصر، ط16.

الشوكاني، محمد بن علي،دت، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مطبعة السعادة، القاهرة/مصر.

عبد العال محمد يونس ، 1996م.في النثر العربي قضايا وفنون و نصوص – مكتبة لبنان، ط1- بيروت لبنان .

عبد العزيز عتيق،2008م، الأدب العربي في الأندلس ، دار النهضة العربية، بيروت/لبنان، ط1.

فوزي سعيد عيسى،1991،"الترسل في القرن الثالث الهجري"،دار المعرفة الجامعية.
القلقشندي أحمد بن علي ،1963م. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، إشراف: سعيد عبد الفتاح عاشور، وزارة الثقافة، مصر، ط2.
لسان الدين بن الخطيب،2003م، الإحاطة في أخبار غرناطة، تح:د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان.
مجموعة من العلماء و الباحثين، دت، الموسوعة العربية، حرف الراء، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزريع، ط2.
مي يوسف خليف، دت، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي، دار قباء للطباعة والنشر، عمان/الأردن.
المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1942م. أزهار الرياض في أخبار عياض، تح: مصطفى السقا، إبراهيم البياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة/ مصر.
المقري أحمد بن محمد التلمساني، 1968م.نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت/لبنان، دط،
يوسف عيد ،2006م. دفاتر أندلسية في الشعر و النثر و النقد و الحضارة و الأعلام ، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون ، طرابلس ، لبنان ، ط 1 .

المذكرات الجامعية:

عبد الحليم كبوط ،2007-2008م، أدبية الرسائل الأندلسية ، (رسالة ماجستير) ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، جامعة الحاج لخضر باتنة .الجزائر.

المقالات:

- غازي الشمري، 2009م، لسان الدين بن الخطيب أديبا، مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي-مصادر وتراجم، كلية العلوم الإنسانية والإسلامية، جامعة وهران(1) أحمد بن بلة، مج08، ع01.
- لحلو اسمهان، 2018م. البعد الديني في شعر لسان الدين بن الخطيب، مجلة الفضاء المغاربي، مخبر الدراسات النقدية والأدبية وأعلامها في المغرب العربي، جامعة أبوبكر بلقايد، تلمسان/ الجزائر، مج2، ع04.